الأدب المقارن المفهوم والنشأة والتطور

أ/ المفهوم:

للأدب المقارن مدلول تاريخي ذلك أنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة وصلاتها الكثيرة المعقدة في حاضرها وماضيها وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر أيا كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاك في الأدب أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتّاب .

شهد الأدب المقارن تطوراً دائماً منذ القرن التاسع عشر ما جعل وضع تعريف جامع مانع له أمرا عصيا عن التحقق، لذا ينبغي أن نستحضر مسار هل الحقل المعرفي منذ نشأته، بدءاً بفرنسا التي تعد المحضن الأول الذي شهد ميلاده لأسباب متعددة سنأتي على ذكرها لاحقا.

ب/أعلام المقارنة الفرنسيين:

لا يمكننا الحديث عن هذا التخصص المعرفي دون أن نستحضر واضعي اللبنات الأولى له، وهم على التوالي:

-**بول فان تييغم** صاحب كتاب: الأدب المقارن الصادر سنة **1931**.

-**ماريوس فرانسوا غويار** صاحب كتاب الأدب المقارن الصادر سنة **1951**.

-**كلود بيشوا وأندريه ميشيل روسو** "صاحبا كتاب **الأدب المقارن** الصادر سنة **1967**. والذي أعيد نشره تحت عنوان "ما الأدب المقارن" بعد أن انضم إليهم **بير برونيل**.

هذا ويعتبر **سانت بوف** على غرار **فيرنان بالدنسبرجر** في مقالته الافتتاحية **لمجلة الأدب المقارن** سنة **1921م** أنّ النشأة الفعلية للأدب المقارن قد كانت في الثاني عشر من شهر آذار(مارس) سنة **1830م** في ثانوية مارسيليا، حيث تناول **جان جاك آمبير** في خطاب الافتتاح لمحاضراته العامة الموسومة بـ "التاريخ المقارن للفنون والآداب عند الشعوب كلها"، في حين يرى فريق آخر من الدارسين أنه بالرغم من المحاولات المقارنية العديدة بين الآداب في السابق إلا أن ملامح هذا العلم بمدلولاته الحالية (الحديثة)، لم تظهر إلا في سنة 1827 في فرنسا ، و ذلك حين بدأ المقارني الفرنسي "**آبيل فيلمان**" (**Abel Villemain**) الذي كان أول من استخدم مصطلح " الأدب المقارن " وإليه يعود وضع الأسس الأولى لهذا الفرع المعرفي الأدبي، يقوم بإلقاء محاضرات في جامعة السوربون حول علاقات الأدب الفرنسي بالآداب الأوروبية متناولا فيها التأثيرات المتبادلة بين الأدب الفرنسي والأدب الإنجليزي ، وتأثير الأدب الفرنسي في إيطاليا في القرن الثامن عشر، و كان هدفه من وراء ذلك تقديم صورة عن ما تلقته الروح الفرنسية من الآداب الأجنبية ، وما أعطته لها من أجل كتابة تاريخ أدب شامل لفرنسا.

هكذا أخذ لون جديد من البحث طريقه للظهور في فرنسا القرن التاسع عشر، في فترة تزامنت مع ظهور الرومانسية والليبرالية إضافة إلى ظهور الروح العلميّة.

ج/الإرهاصات الأولى للفعل المقارني:

من الطبيعي أن تسبق تشكل معالم أي حقل معرفي بوادر ومحاولات شديدة الصلة به، لكنها لا تعتبر من صميم البحث فيه بل مجرد ممارسات ممهدة لتبلوره بشكل منهجي مكتمل، ولا يشذ حقل الأدب المقارن عن هذه القاعدة.

لعل أقدم ظاهرة وثيقة الصلة بهذا الحقل تتمثل في تأثير الأدب اليوناني في الأدب اللاتيني(الروماني)، فبالرغم من انهزام اليونان إلاّ أنّها ظلت تمارس سلطتها الثقافية إن صح القول على روما التي ظلت مدينة لها في شتى صنوف المعرفة من فلسفة وفنون، فقد فقد الأدب الروماني كل أصالة تذكر فيما عدا التاريخ والخطابة، وقد أثمرت هذه المحاكاة العديد من الدراسات مثّلت نواة نظرية المحاكاة في عصر النهضة، فعلى الشاعر حسب نقاد روما أن يحاكي العباقرة الذين بدورهم قد حاكوا الطبيعة ، إذ يقول **هوراس في فن الشعر**:" اتّبعوا أمثلة الإغريق واعكفوا على دراستها ليلا واعكفوا على دراستها نهارا "، وفي هذا اعتراف منه بأنّ المحاكاة مثمرة على ألاّ تمحو أصالة الشاعر.

أمّا خلال فترة العصور الوسطى فقد توحّدت اتجاهات الأدب في أوربا نظرا لعاملين، أولهما ديني تمثل في سيطرت الكنيسة على الفكر وتغلغل الروح المسيحية في النتاج الأدبي، فقد كانت اللاتينية لغة العلم والأدب والدين، وثانيهما ظاهرة الفروسية التي انتشرت في الآداب الأوروبية خلال تلك العصور، كان من الممكن أن تفتح هذه التماثلات مجال البحث المقارني لكن الأمر لم يحدث إلا خلال العصور الحديثة حيث تولى النقد الأدبي ذلك.

وفي عصر النهضة ق 15و16 عاد الأوروبيون إلى استلهام نظرية المحاكاة فتوافدوا على الأدب اليوناني والروماني، وآثروا العودة إلى النصوص القديمة في لغاتها الأصلية مستلهمين ما فيها من اتجاهات إنسانية، كما عمدوا إلى شرح نظرية المحاكاة وتقنينها فيما يعرف بالمدرسة الكلاسيكية .

وتتمحور هذه النظرية على أبعاد وثيقة الصلة بالدراسات المقارنة ألا وهي أن الأصالة المطلقة مستحيلة وأنّ التأثر طابع أدبي كما أنّ المحاكاة وسيلة لإغناء

اللغات، ويتمثل المعنى الحقيقي لكلمة محاكاة في التأثر الهاضم لا الذليل المقلد، ولتحقيق ذلك وضعت ثلاثة مبادئ:

-أن يتم اختيار النموذج على أساس العقل الرشيد والدربة الفنية.

-أن يحاكي الأديب ما يتفق وعصره.

-ألاّ يحاكي الكتاب من نفس لغته.

وقد اتجه العصر الكلاسيكي ق17و18 إلى تقنين الأدب من خلال النقد الدغمائي ما أدى إلى التقييد من حرية الأديب، فصارت مهمة الناقد تنحصر في وضع قواعد لمختلف الأجناس وينتظر من الأديب السير عليها وكل إخلال بها يعرضه للنقد واللوم وهو ما فعلته **مدام دي سكديري** حين لامت الشاعر **كورناي** على سرقة **مسرحية السيد** من الأدب الإسباني ، ولكن ذلك لم يجعلها تتعرض للصلات التاريخية بتحليلها وتقويمها لأنها في نظر هؤلاء خروج عن النهج الصحيح للأدب.

د/ العوامل التي أسهمت في ظهور الأدب المقارن:

-**الاتجاه الرومانسي:** من خلال الدعوة إلى الإفادة من الآداب الأخرى ودراستها في لغاتها الأصلية، فتح آفاق جديدة للآداب القومية من خلال البحث والتأثر، توجيه النقد الأدبي توجيها علميا من خلال ربط الأدب بالبيئة الاجتماعية **(مدام دي ستايل** التي كانت تعطي أمثلة من الآداب الأوروبية في دراستها للأدب وعلاقته بالعادات والأديان بالأدب) ومحاولة تفسيره على ضوء حياة المؤلف من خلال البحث عن عناصر ثقافته **(سانت بوف** الذي اهتدى إلى فكرة وجود خصائص للأسر الفكرية التي ينتمي إليها الأدباء وإن كانت موازناته لم تخرج عن نطاق الأدب الفرنسي)، فالأدب وفق هذا المنظور تجربة إنسانية جوهرها الذاتية والعبقرية وهو أفكار تصب

في قوالب مصنوعة، وقد أسهم هذا التصور في ميلاد التاريخ الأدب بالمفهوم الحديث الذي يعنى بتفسير الأدب من خلال ربطه بمؤلفه وبيئته وجنسه وعصره...

-**النهضة العلمية:** كان القرن التاسع عشر عصر المخترعات العلمية والرغبة في البحث عن أصل الأشياء على أساس علمي منهجي، من ذلك ظهور نظرية داروين عن طريقة الاختيار في الطبيعة(نظرية النشوء والارتقاء)، وقد كان لهذه الرؤيا صدى في مجال الفلسفة حيث صار ينظر للإنسان باعتباره نتيجة تكوين العالم له في مختلف العصور، كما ظهرت كتب تناولت أصل النظم الاجتماعية والأديان والأفكار، من ذلك كتاب أرنست رينان "تاريخ أصول المسيحية"، كما ظهر صدى ذلك في كتاب الإنجليزي **بوسنت** "**الأدب المقارن**" **1888** إذ درس فيه تأثر الأدب في مختلف الدول بالعوامل الاجتماعية وكذا تطوره بتطور المجتمعات من قبلية إلى إقطاعية إلى مدنية...

-الاتجاه العام نحو المقارنات في مختلف المجالات المعرفية لاستنباط الحقائق من ذلك ظهور علم التشريع المقارن، علم الميثولوجيا المقارن، علم اللغة المقارن"...لذا لا غرابة أن يتجه تاريخ الأدب نحو الأدب المقارن.

هـ/ بعض تعريفات الأدب المقارن:

1-" الأدب العام والمقارن هو حالة روحية، وولع بالانفتاح ونزوع إلى التركيب ومعرض للتأنيب والسخرية إنه أيضا كالبارحة تدريب أصيل على الآداب الحديثة والثقافات الماضية والحاضرة"**(كتاب الأدب العام المقارن لدانييل هنري باجو/ص10).**

2-" الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية الدولية . من هنا أن الباحث المقارن يتوقف عند الحدود اللغوية أو الوطنية ويراقب تبادل المواضيع والأفكار والكتب والمشاعر بين أدبين أو أكثر "**(ماريوس فرانسوا غويار/تر:هنري زغيب ص15).**

3-" الأدب المقارن هو الفن المنهجي الذي يبحث في علاقات التشابه والتقارب والتأثير وتقريب الأدب في مجالات التعبير والمعرفة الأخرى، أو أيضا الوقائع والنصوص الأدبية فيما بينها، المتباعدة في الزمان والمكان والمتقاربة شرط أن تعود إلى لغات وثقافات مختلفة، تشكل جزءا من تراث واحد من أجل وصفها بصورة أفضل وفهمها وتذوقها" **(من كتاب الأدب العام المقارن لدانييل هنري باجو/ تر: غسان السيد، ص18). التعريف امتداد لما وضعه كلود بيشوا وأندري ميشيل روسو في كتابهما الأدب المقارن الصادر سنة 1967.**

4- "الأدب المقارن فرع من التاريخ الأدبي لأنه دراسة العلاقات الروحية الدولية والصلات الواقعية التي توجد بين بيرون(من انجلترا) وبوشكين(من روسيا) وجوته(من ألمانيا) وكارليل(انجلترا) وولتر سكوت(انجلترا) وفيني(فرنسا) أي بين المنتجات والإلهامات بل بين حيوات الكتاب المنتمين إلى آداب عدة، وهو لا ينظر من وجهة جوهرية إلى المنتجات من حيث قيمتها الأصلية لكنه يعنى على الأخص بالتحولات التي تخضع لها كل دولة أو كل مؤلف مستعاراته، ففي الواقع إن كلمة التأثير معناها غالبا التأويل، فردّ الفعل فالمقاومة فالمعركة" **(تعريف جان ماري كاريه تلميذ فان تييغم/ من كتاب مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن- أحمد شوقي رضوان/ ص14).**

كما يرى بول فان تييغم أن الهدف النهائي للأدب المقارن يكمن في إكمال مختلف التواريخ الأدبية وتوحيدها "سينسج الأدب المقارن بين هذه التواريخ الأدبية وفوقها عقد تاريخ أدبي أكثر شمولا"(**من كتاب الأدب العام المقارن لدانييل هنري باجو ص16**).